العلمانية والهوية اللغوية العربية: دراسة نقدية في أثر الفكر العلماني على مكانة اللغة العربية الفصحى

م.د. أركان خضير عباس الشمري

arkan.khudhair@uoanbar.edu.iq

جامعة الأنبار / كلية التربية للعلوم الإنسانية

Secularism and Arab Linguistic Identity: A Critical Study of the Impact of Secular Thought on the Status of Modern Standard Arabic

Dr. Arkan Khadir Abbas Al-Shammari
University of Anbar / College of Education for Humanities

المستخلص

تُعد اللغة العربية الفصحى أحد أهم المقومات الحضارية التي تشكل هوية الأمة العربية والإسلامية، فهي لغة القرآن الكريم، والوعاء الذي حفظ التراث الفكري والثقافي عبر القرون. ومع تصاعد التأثيرات الفكرية الوافدة، ولا سيما الفكر العلماني الذي ارتبط في كثير من صوره بمشروعات التغريب الثقافي، برزت تحديات متعددة أثرت في مكانة اللغة العربية وحضورها في الحياة العامة.

ويهدف هذا البحث إلى دراسة العلاقة بين الفكر العلماني والهوية اللغوية العربية، وتحليل أبرز المظاهر التي انعكس من خلالها هذا الفكر على واقع اللغة العربية الفصحى، من خلال الدعوة إلى العامية، وتعزيز هيمنة اللغات الأجنبية، وإعادة تشكيل السياسات التعليمية والثقافية والإعلامية بما أسهم في إضعاف حضور الفصحى في بعض المجالات.

واعتمد البحث المنهج التحليلي النقدي في دراسة المفاهيم والظواهر المرتبطة بموضوعه، مع الاستفادة من الدراسات الفكرية واللغوية التي تناولت قضايا الهوية واللغة والتغريب.

وقد توصل البحث إلى أن اللغة العربية لم تكن مستهدفة بوصفها أداة تواصل فحسب، بل بوصفها حاملة للهوية الدينية والثقافية والحضارية للأمة، وأن المحافظة عليها تمثل ضرورة حضارية وثقافية تسهم في حماية الهوية وتعزيز الانتماء.

الكلمات المفتاحية: العلمانية، الهوية اللغوية، اللغة العربية الفصحى، التغريب، العامية، الهوية الثقافية.

Abstract

Modern Standard Arabic is regarded as one of the most significant civilizational foundations shaping the identity of the Arab and Islamic nation. It is the language of the Holy Qur'an and the medium through which the intellectual and cultural heritage of the الأمة has been preserved throughout the centuries. With the increasing influence of imported intellectual currents, particularly secular thought, which has often been associated with projects of cultural westernization, several challenges have emerged that have affected the status of the Arabic language and its presence in public life.

This study aims to examine the relationship between secular thought and Arab linguistic identity and to analyze the most prominent manifestations through which this thought has influenced the reality of Modern Standard Arabic. These manifestations include the promotion of colloquial dialects, the growing dominance of foreign languages, and the restructuring of educational, cultural, and media policies in ways that have contributed to weakening the role of Standard Arabic in certain domains.

dy adopts a critical analytical approach to investigate the concepts and phenomena related to its subject matter, drawing upon both intellectual and linguistic studies that address issues of identity, language, and westernization. The findings reveal that the Arabic language has not merely been targeted as a means of communication, but also as a carrier of the religious, cultural, and civilizational identity of the nation. Consequently, preserving and strengthening the Arabic language constitutes a cultural and civilizational necessity that contributes to safeguarding identity and reinforcing a sense of belonging.

Keywords: Secularism ،Linguistic Identity, Modern Standard Arabic, Westernization, Colloquial Dialects, Cultural Identity

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

تمثل اللغة في حياة الأمم أكثر من كونها وسيلة للتخاطب والتفاهم؛ إذ تعد وعاءً للفكر، ومستودعاً للثقافة، وأداةً لحفظ الذاكرة التاريخية والهوية الحضارية. وكلما كانت الأمة أكثر تمسكاً بلغتها، كانت أقدر على المحافظة على خصوصيتها الثقافية واستقلالها الفكري، ولذلك ارتبطت النهضات الحضارية الكبرى عبر التاريخ بالحفاظ على اللغة الوطنية وتعزيز حضورها في مختلف مجالات الحياة.

وتتميز اللغة العربية بمكانة فريدة بين لغات العالم، إذ اقترنت بالوحي الإلهي الخاتم، واختارها الله تعالى لتكون لغة القرآن الكريم، فغدت رمزاً دينياً وحضارياً وثقافياً يتجاوز حدود الجغرافيا والقوميات. وقد أسهمت العربية عبر قرون طويلة في بناء الحضارة الإسلامية ونقل العلوم والمعارف، وشكلت عاملاً رئيساً في توحيد الشعوب الإسلامية على اختلاف أعراقها وأوطانها.

غير أن القرنين الأخيرين شهدا تحولات فكرية وثقافية عميقة صاحبت التوسع الاستعماري الغربي وظهور مشروعات التحديث والتغريب، وكان من بين أبرز تلك التحولات انتقال الفكر العلماني إلى المجتمعات العربية والإسلامية، وما رافقه من دعوات إلى إعادة النظر في كثير من الثوابت الثقافية والحضارية. ولم يقتصر أثر هذه الدعوات على الجوانب السياسية أو الاجتماعية، بل امتد ليشمل المجال اللغوي، حيث ظهرت اتجاهات تدعو إلى التقليل من شأن اللغة العربية الفصحى، وإحلال اللهجات العامية أو اللغات الأجنبية محلها في بعض ميادين التعليم والثقافة والإعلام.

ومن هنا تنبع أهمية هذا البحث؛ إذ يسعى إلى دراسة أثر الفكر العلماني في الهوية اللغوية العربية، والكشف عن أبرز التحديات التي واجهت اللغة العربية الفصحى في ظل التحولات الفكرية والثقافية المعاصرة، مع بيان أهمية المحافظة على اللغة العربية بوصفها أحد أهم مرتكزات الهوية الحضارية للأمة.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي:

ما أثر الفكر العلماني في مكانة اللغة العربية الفصحى، وكيف انعكس ذلك على الهوية اللغوية والثقافية للمجتمعات العربية والإسلامية؟

أهمية البحث:

١- إبراز العلاقة الوثيقة بين اللغة العربية والهوية الحضارية للأمة.

٢- بيان أثر التحولات الفكرية المعاصرة في واقع اللغة العربية الفصحى.

٣- الكشف عن انعكاسات الفكر العلماني على السياسات اللغوية والتعليمية والثقافية.

٤- المساهمة في تعزيز الوعي بأهمية المحافظة على اللغة العربية بوصفها أحد أهم مقومات الهوية.

أهداف البحث:

١- التعريف بمفهوم العلمانية وعلاقتها بالتغريب الثقافي.

٢- بيان مفهوم الهوية اللغوية وأهميتها في حياة الأمم.

٣- دراسة أثر الفكر العلماني في واقع اللغة العربية الفصحى.

٤- تقديم رؤية علمية تسهم في تعزيز حضور اللغة العربية والمحافظة على هويتها الحضارية.

منهج البحث:

اعتمد البحث المنهج التحليلي النقدي، من خلال تحليل المفاهيم الفكرية واللغوية المرتبطة بموضوع الدراسة، وبيان أثرها في واقع اللغة العربية الفصحى، مع الاستفادة من الدراسات السابقة والمراجع المتخصصة في مجالي الفكر واللغة.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العلمانية والهوية اللغوية العربية.

المبحث الثاني: أثر الفكر العلماني في مكانة اللغة العربية الفصحى.

المبحث الثالث: العربية الفصحى بين التحديات وسبل المحافظة عليها.

المبحث الأول: العلمانية والهوية اللغوية العربية

المطلب الأول: مفهوم العلمانية ونشأتها وعلاقتها بالتغريب

تُعد العلمانية من أبرز المفاهيم الفكرية التي برزت في الفكر الغربي الحديث، وأثارت جدلاً واسعاً في الأوساط الفكرية والثقافية؛ لما ترتب عليها من آثار امتدت إلى مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية. ويرجع أصل مصطلح العلمانية إلى الكلمة اللاتينية (Saeculum) التي تدل على العالم الدنيوي أو الزمني، ثم تطور استعمالها في الفكر الغربي لتشير إلى الاتجاه الداعي إلى تنظيم شؤون الحياة العامة بعيداً عن المرجعية الدينية[١].

وقد نشأت العلمانية في أوروبا نتيجة ظروف تاريخية خاصة ارتبطت بالصراع الذي وقع بين الكنيسة والعلماء من جهة، وبين الكنيسة والسلطة السياسية من جهة أخرى، إذ مارست المؤسسة الكنسية نفوذاً واسعاً على المجتمع الأوروبي خلال العصور

الوسطى، الأمر الذي أوجد ردود فعل فكرية وسياسية طالبت بتحديد دور الدين في الحياة العامة وحصره في المجال الشخصي والروحي[٢].

ومع التحولات الفكرية التي شهدتها أوروبا خلال عصر النهضة ثم عصر التنوير، أخذت العلمانية تتبلور بوصفها مشروعاً فكرياً يهدف إلى بناء المجتمع على أساس المرجعية البشرية والعقلانية، بعيداً عن السلطة الدينية. ثم انتقلت هذه الفكرة تدريجياً من المجال السياسي إلى مجالات التعليم والثقافة والفنون والإعلام، حتى أصبحت رؤية شاملة للحياة والمجتمع[٣].

وعندما انتقلت العلمانية إلى العالم العربي والإسلامي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، لم تأتِ بوصفها فكرة سياسية فحسب، بل ارتبطت بمشروع أوسع تمثل في التغريب الثقافي، الذي سعى إلى نقل النموذج الحضاري الغربي إلى المجتمعات الإسلامية في مختلف المجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية[٤].

ويقصد بالتغريب في أحد تعريفاته: _(صبغ المجتمعات الإسلامية بالصبغة الغربية فكراً وسلوكاً وثقافةً وقِيماً)، وهو ما جعل العلاقة بين العلمانية والتغريب علاقة تكاملية؛ إذ وجد كل منهما في الآخر وسيلة لتحقيق أهدافه الفكرية والثقافية[٥].

ولم يكن استهداف اللغة العربية بعيداً عن هذا السياق؛ لأن اللغة تمثل أحد أهم مقومات الهوية الحضارية للأمم، فالسيطرة على اللغة أو إضعافها يفضي بالضرورة إلى التأثير في الثقافة والوعي والانتماء. ومن هنا ارتبطت بعض الدعوات التغريبية بمشروعات هدفت إلى إضعاف مكانة اللغة العربية الفصحى والدعوة إلى العامية أو إحلال اللغات الأجنبية محلها في بعض ميادين الحياة العامة، بوصف اللغة العربية إحدى الحصون التي تحفظ الخصوصية الحضارية للأمة العربية والإسلامية[٦].

ومن ثم فإن دراسة أثر العلمانية في الهوية اللغوية العربية لا يمكن فصلها عن دراسة العلاقة بين العلمانية والتغريب؛ لأن كليهما أسهم بدرجات متفاوتة في إعادة تشكيل البنية الثقافية للمجتمعات العربية المعاصرة، بما في ذلك علاقتها بلغتها وتراثها الحضاري.

المطلب الثاني: مفهوم الهوية اللغوية وأهميتها في بناء الشخصية الحضارية

تُعد الهوية اللغوية من المفاهيم التي حظيت باهتمام واسع في الدراسات اللغوية والثقافية المعاصرة، لما تمثله من ارتباط وثيق بوجود الأمم واستمرارها الحضاري. فاللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل ونقل المعلومات، بل هي وعاء للفكر، وحافظة للتراث، وأداة لتشكيل الوعي الجمعي، ومن خلالها تُنقل القيم والتصورات والمفاهيم التي تميز أمة عن غيرها. ولهذا أصبحت الهوية اللغوية أحد أبرز المؤشرات الدالة على خصوصية الشعوب واستقلالها الثقافي(٧).

ويقصد بالهوية اللغوية الخصائص اللغوية والثقافية التي تميز جماعة بشرية معينة، وتجعلها قادرة على التعبير عن ذاتها الحضارية من خلال لغة مشتركة تحمل تاريخها وقيمها ورؤيتها للعالم. فاللغة ليست مجرد ألفاظ وتراكيب، بل هي مخزون ثقافي يعكس خبرات المجتمع وتجاربه المتراكمة عبر الأجيال(٨).

وقد أدرك علماء اللغة والاجتماع أن العلاقة بين اللغة والهوية علاقة تكاملية، إذ تسهم اللغة في بناء الانتماء وترسيخ الشعور بالوحدة الثقافية، بينما تمنح الهويةُ اللغةَ أسباب البقاء والاستمرار. ولذلك فإن الأمم التي تحافظ على لغتها تحافظ في الوقت نفسه على شخصيتها الحضارية، أما حين تضعف اللغة أو تُهمَّش فإن أول ما يتأثر بذلك هو البناء الثقافي والرمزي للمجتمع(٩).

وتكتسب الهوية اللغوية العربية خصوصية استثنائية؛ لأن اللغة العربية لم ترتبط بتاريخ العرب وحدهم، بل ارتبطت بالدين الإسلامي ارتباطاً وثيقاً، إذ نزل بها القرآن الكريم، وحُفظت بها السنة النبوية، وتكوّن من خلالها التراث العلمي والفكري والحضاري للأمة الإسلامية على مدى قرون طويلة. وقد منح هذا الارتباط اللغة العربية مكانة فريدة جعلتها تتجاوز حدود الانتماء القومي إلى فضاء حضاري أوسع يضم شعوباً وأقواماً متعددة(١٠).

ولقد أسهمت اللغة العربية عبر التاريخ في تحقيق الوحدة الثقافية بين أجزاء العالم الإسلامي، فكانت لغة العلم والمعرفة والإدارة والأدب، وأدت دوراً مركزياً في نقل العلوم وإنتاجها، حتى أصبحت أحد أهم عناصر التماسك الحضاري بين المسلمين على اختلاف أقاليمهم وأعراقهم(١١).

ومن هذا المنطلق فإن أي محاولة تستهدف إضعاف اللغة العربية أو التقليل من شأنها لا تنحصر آثارها في الجانب اللغوي وحده، بل تمتد إلى التأثير في الوعي الثقافي والانتماء الحضاري. فاللغة تمثل الذاكرة الحية للأمة، وحين تتراجع مكانتها يتراجع معها حضور التراث والقيم والمفاهيم التي تحملها. ولهذا يؤكد الباحثون أن المحافظة على اللغة الأم ليست قضية لغوية فحسب، وإنما هي قضية هوية وسيادة ثقافية واستقلال حضاري(١٢).

وفي ظل التحولات الفكرية والثقافية التي يشهدها العالم المعاصر، وما رافقها من انتشار اللغات العالمية وهيمنة وسائل الإعلام الحديثة، أصبحت الهوية اللغوية العربية تواجه تحديات متزايدة تستدعي مزيداً من الاهتمام والدراسة. ومن هنا تأتي أهمية بحث أثر الفكر العلماني في مكانة اللغة العربية الفصحى، باعتبارها أحد أهم مرتكزات الهوية الثقافية والحضارية للأمة العربية والإسلامية.

المبحث الثاني: أثر الفكر العلماني في مكانة اللغة العربية الفصحى

المطلب الأول: الدعوة إلى العامية وإضعاف مكانة الفصحى

تمثل اللغة العربية الفصحى أحد أبرز المقومات الحضارية والثقافية للأمة العربية والإسلامية، فهي لغة القرآن الكريم، والوعاء الذي حفظ التراث العلمي والفكري عبر القرون. ولأجل ذلك حظيت باهتمام بالغ من العلماء والمفكرين الذين أدركوا أن المحافظة على اللغة تعني المحافظة على الهوية والانتماء الحضاري.

وفي مقابل ذلك ظهرت منذ أواخر القرن التاسع عشر دعوات متعددة نادت بإحلال اللهجات العامية محل اللغة العربية الفصحى، سواء في التعليم أو الكتابة أو وسائل الإعلام أو الحياة العامة. وقد ارتبطت هذه الدعوات في كثير من الأحيان بمشروعات التغريب الثقافي التي رأت في اللغة العربية أحد أهم العوامل التي تحفظ وحدة الأمة الفكرية والثقافية(١٣).

وقد بدأت هذه الدعوات على أيدي عدد من المستشرقين وبعض المتأثرين بالفكر الغربي، الذين زعموا أن اللغة العربية الفصحى لغة صعبة لا تواكب متطلبات العصر، وأن استعمال اللهجات المحلية يسهم في تقريب المعرفة إلى عامة الناس ويحقق مزيداً من الإبداع والتطور الثقافي(١٤).

غير أن المتأمل في هذه الدعوات يلاحظ أنها لم تكن مجرد مقترحات لغوية تهدف إلى التيسير، وإنما انطوت على نتائج ثقافية وحضارية بعيدة المدى؛ لأن استبدال الفصحى بالعاميات يؤدي إلى تفكيك الوحدة اللغوية التي تجمع أبناء الأمة العربية، ويجعل كل مجتمع محصوراً في لهجته المحلية، الأمر الذي يضعف التواصل الثقافي والفكري بين أبناء الأمة الواحدة(١٥).

كما أن انتشار العامية على حساب الفصحى يؤدي إلى اتساع الفجوة بين الأجيال المعاصرة وبين التراث العربي والإسلامي المكتوب باللغة العربية الفصحى، مما يحد من قدرة الأجيال الجديدة على التواصل المباشر مع مصادر الثقافة العربية والإسلامية، ويجعلها أكثر اعتماداً على الوسائط والشروح الحديثة في فهم ذلك التراث[١٦].

ومن هنا فإن الدعوة إلى العامية لا يمكن النظر إليها بمعزل عن آثارها الثقافية والحضارية، لأن اللغة ليست أداة للتواصل فحسب، بل هي أيضاً أداة لحفظ الذاكرة الجماعية وصيانة الهوية الثقافية للأمة.

المطلب الثاني: هيمنة اللغات الأجنبية في التعليم والإعلام

شهد العالم العربي خلال العقود الأخيرة توسعاً ملحوظاً في استخدام اللغات الأجنبية في ميادين التعليم العالي والبحث العلمي والإعلام والاقتصاد، وأصبح إتقان بعض اللغات الأجنبية معياراً للتفوق العلمي والاجتماعي في كثير من البيئات العربية. ولا شك أن تعلم اللغات الأجنبية أمر مطلوب للتواصل المعرفي والانفتاح الحضاري، إلا أن الإشكالية تظهر عندما يتحول هذا التعلم إلى تهميش للغة العربية أو استبعادها من المجالات الحيوية داخل المجتمع.

وقد أسهمت بعض الاتجاهات المتأثرة بالفكر العلماني في ترسيخ هذا التصور من خلال ربط التقدم العلمي والحضاري باللغة الأجنبية وحدها، وإظهار اللغة العربية بوصفها لغة تراثية محدودة الصلة بمتطلبات العصر الحديث، الأمر الذي انعكس على السياسات التعليمية والثقافية في بعض البلدان العربية[١٧].

وقد ترتب على ذلك اتساع نطاق التدريس باللغات الأجنبية في عدد من المؤسسات التعليمية، ولا سيما في التخصصات العلمية والطبية والتقنية، حتى أصبحت العربية

في بعض الأحيان غائبة عن كثير من المجالات المعرفية الحديثة. كما ساهم الإعلام المعاصر في تعزيز هذا الاتجاه من خلال الإكثار من المصطلحات الأجنبية وإدخالها في الخطاب الإعلامي اليومي دون حاجة حقيقية في كثير من الأحيان(١٨).

ولا يقتصر أثر هذه الظاهرة على الجانب اللغوي، بل يمتد إلى تشكيل أنماط جديدة من الوعي الثقافي، إذ يرتبط الانبهار باللغة الأجنبية تدريجياً بالانبهار بالمنظومة الثقافية التي تمثلها، مما يفضي إلى حالة من الاغتراب الثقافي لدى بعض فئات المجتمع، ولا سيما فئة الشباب(١٩).

ومن هنا يؤكد الباحثون في قضايا الهوية اللغوية أن الانفتاح على اللغات الأجنبية يجب أن يكون في إطار التفاعل الحضاري المتوازن، لا على حساب اللغة الوطنية أو الهوية الثقافية للمجتمع.

المطلب الثالث: التحولات اللغوية المعاصرة وأثرها في الهوية العربية

أدت التحولات التقنية والإعلامية المتسارعة التي يشهدها العالم المعاصر إلى ظهور أنماط جديدة من الاستعمال اللغوي، كان لها أثر واضح في واقع اللغة العربية الفصحى.

فقد أفرزت وسائل التواصل الاجتماعي والمنصات الرقمية لغة هجينة تجمع بين العربية العامية والألفاظ الأجنبية والاختصارات التقنية، مما أثر في مستوى الأداء اللغوي لدى كثير من المستخدمين، ولا سيما فئة الشباب.

وفي ظل هذه التحولات برزت اتجاهات تدعو إلى التعامل مع اللغة بوصفها أداة وظيفية مجردة من أبعادها الثقافية والحضارية، الأمر الذي أسهم في تراجع الاهتمام

بالفصحى في بعض البيئات التعليمية والثقافية، مقابل اتساع مساحة الاستخدام غير المنضبط للهجات المحلية واللغات الأجنبية[٢٠].

كما أن التحولات اللغوية المعاصرة أسهمت في إعادة تشكيل الوعي اللغوي لدى الأجيال الجديدة، حيث أصبحت بعض المفردات والتعابير الأجنبية أكثر حضوراً في الخطاب اليومي من نظيراتها العربية، وهو ما أدى إلى ضعف الصلة بين المتلقي وبين الرصيد اللغوي العربي الأصيل[٢١].

ويزداد أثر هذه التحولات خطورة عندما تقترن بخطابات فكرية وثقافية تقلل من أهمية الفصحى أو تشكك في قدرتها على استيعاب العلوم والمعارف الحديثة، لأن ذلك يفضي إلى إضعاف الثقة باللغة العربية ذاتها، وهي الثقة التي تمثل الأساس في استمرار اللغة وحيويتها داخل المجتمع.

ومع ذلك فإن اللغة العربية أثبتت عبر تاريخها الطويل قدرة كبيرة على التكيف مع المتغيرات الحضارية واستيعاب العلوم والمعارف المختلفة، فقد كانت لغة للفلسفة والطب والفلك والرياضيات في عصور الازدهار الحضاري الإسلامي، وما تزال تمتلك من المرونة والثراء ما يؤهلها لمواكبة التطورات المعاصرة متى ما توافرت الإرادة العلمية والثقافية الداعمة لذلك[٢٢].

ومن ثم فإن التحدي الحقيقي لا يكمن في قصور اللغة العربية، وإنما في طبيعة السياسات الثقافية والتعليمية والإعلامية التي تحدد حجم حضورها في الحياة العامة، ومدى قدرتها على أداء دورها الحضاري في بناء الهوية وصيانة الانتماء الثقافي.

المبحث الثالث: العربية الفصحى بين التحديات وسبل المحافظة عليها

المطلب الأول: العربية الفصحى والمرجعية الحضارية للأمة

تمثل اللغة العربية الفصحى أحد أهم المرتكزات الحضارية التي قامت عليها الأمة العربية والإسلامية، إذ لم تكن عبر تاريخها الطويل مجرد أداة للتواصل والتفاهم، بل كانت وعاءً للثقافة والفكر، وحافظةً للتراث، ووسيلةً لنقل العلوم والمعارف بين الأجيال. وقد ازدادت مكانتها رسوخاً حين اختارها الله تعالى لغةً لكتابه العزيز، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢٣]، فغدت اللغة العربية مرتبطة بالدين الإسلامي ارتباطاً وثيقاً، وأصبحت المحافظة عليها جزءاً من المحافظة على هوية الأمة وخصوصيتها الحضارية[٢٤].

ولقد أسهمت العربية في بناء الحضارة الإسلامية منذ العصور الأولى، فكانت لغة العلم والتأليف والترجمة والإبداع، واستوعبت مختلف العلوم الإنسانية والطبيعية، حتى أصبحت لعدة قرون لغة المعرفة العالمية. وقد أشار الباحثون إلى أن قوة اللغة العربية لم تكن نابعة من بعدها الديني فحسب، وإنما من خصائصها اللغوية وقدرتها الكبيرة على الاشتقاق والتوليد واستيعاب المصطلحات العلمية المختلفة[٢٥].

ومن هنا فإن مكانة اللغة العربية تتجاوز حدود الانتماء القومي إلى الانتماء الحضاري، فهي تمثل الرابط الثقافي المشترك بين أبناء الأمة العربية والإسلامية، وتسهم في حفظ ذاكرتها التاريخية وتراثها الفكري. ولذلك فإن أي محاولة لإضعاف حضورها أو تهميشها لا تقف آثارها عند الجانب اللغوي، بل تمتد إلى التأثير في البناء الثقافي والهوية الحضارية للمجتمع[٢٦].

وقد أدركت العديد من الدراسات المعاصرة أن المحافظة على اللغة الوطنية تعد من أهم وسائل المحافظة على الهوية الثقافية للأمم، لاسيما في ظل المتغيرات الفكرية والثقافية التي يشهدها العالم المعاصر. ولهذا أصبحت اللغة العربية تمثل اليوم إحدى أهم ركائز الصمود الثقافي في مواجهة محاولات الذوبان الحضاري والتبعية الفكرية[٢٧].

المطلب الثاني: دور المؤسسات التعليمية والثقافية في حماية الفصحى

تؤدي المؤسسات التعليمية والثقافية دوراً محورياً في المحافظة على اللغة العربية الفصحى وتعزيز حضورها في مختلف مجالات الحياة، إذ إن اللغة لا تستمر بقوتها الذاتية فحسب، وإنما تحتاج إلى مؤسسات ترعاها وتعمل على تطويرها وربطها بالواقع المعاصر. وتأتي المؤسسات التعليمية في مقدمة هذه الجهات؛ لأنها المسؤولة عن تنمية الملكة اللغوية لدى الأجيال الناشئة، وترسيخ الوعي بأهمية اللغة بوصفها أحد مقومات الهوية الحضارية[٢٨].

وقد أثبتت التجارب التربوية أن نجاح العملية التعليمية يرتبط إلى حد كبير بمكانة اللغة الوطنية داخل المؤسسات الأكاديمية، فكلما ازدادت عناية المناهج الدراسية باللغة الأم، ازدادت قدرة الطلبة على التعبير والإبداع والإنتاج المعرفي. ولذلك تؤكد الدراسات التربوية ضرورة دعم اللغة العربية في مختلف المراحل التعليمية، وعدم قصرها على المواد الأدبية أو اللغوية فقط، بل توسيع حضورها في ميادين البحث العلمي والتخصصات المختلفة[٢٩].

كما تضطلع الجامعات ومراكز البحث العلمي بدور مهم في تطوير اللغة العربية من خلال إعداد المعاجم المتخصصة، وتعريب المصطلحات العلمية، وتشجيع البحوث

التي تعالج القضايا اللغوية المعاصرة، بما يسهم في جعل العربية لغة قادرة على مواكبة التطورات العلمية والتقنية المتسارعة[٣٠].

أما المؤسسات الثقافية والإعلامية فإن مسؤوليتها لا تقل أهمية عن المؤسسات التعليمية، لأنها تسهم بصورة مباشرة في تشكيل الذائقة اللغوية للمجتمع. فوسائل الإعلام بما تمتلكه من تأثير واسع تستطيع أن تعزز حضور الفصحى أو أن تضعفها، تبعاً للسياسات اللغوية التي تتبناها. ولهذا فإن نشر المحتوى الإعلامي والثقافي بلغة عربية سليمة يعد من أهم الوسائل الكفيلة بالحفاظ على سلامة اللغة وترسيخها في الوعي العام[٣١].

المطلب الثالث: آليات تعزيز الهوية اللغوية العربية في العصر الرقمي

أحدثت الثورة الرقمية تحولات كبيرة في أنماط التواصل الإنساني وإنتاج المعرفة وتداولها، وأصبحت وسائل التواصل الاجتماعي والمنصات الإلكترونية من أهم البيئات المؤثرة في السلوك اللغوي للأفراد والمجتمعات. وقد ترتب على ذلك ظهور أنماط لغوية جديدة اتسم بعضها بالخلط بين العربية الفصحى واللهجات العامية واللغات الأجنبية، الأمر الذي أوجد تحديات حقيقية أمام الهوية اللغوية العربية[٣٢].

وفي مقابل هذه التحديات، وفر العصر الرقمي فرصاً واسعة لخدمة اللغة العربية وتعزيز حضورها في المجال الإلكتروني. فقد أصبح بالإمكان إنتاج محتوى عربي ضخم، وإنشاء قواعد بيانات لغوية، وتطوير تطبيقات وبرمجيات تعتمد العربية في مجالات التعليم والبحث العلمي والترجمة الآلية ومعالجة النصوص، وهو ما يسهم في توسيع دائرة استخدامها وتعزيز حضورها بين الأجيال الجديدة[٣٣].

أهم الآليات التي يمكن أن تسهم في تعزيز الهوية اللغوية العربية في العصر الرقمي دعم المحتوى العربي الرقمي، وتشجيع المؤسسات الأكاديمية على نشر المعرفة باللغة العربية، وتطوير البرمجيات الذكية الخاصة بمعالجة اللغة العربية، فضلاً عن تعزيز حضور الفصحى في المنصات الإعلامية ووسائل التواصل الاجتماعي، بما يسهم في تقريبها من المستخدم المعاصر وإظهار قدرتها على مواكبة التطورات التقنية الحديثة[٣٤].

كما أن نشر الوعي بأهمية اللغة العربية وربطها بالهوية الحضارية للأمة يعد من أهم الوسائل التي تساعد على المحافظة عليها في ظل التحديات الراهنة، لأن اللغة لا تُحفظ بالقوانين والأنظمة وحدها، وإنما تُحفظ كذلك بإيمان أهلها بقيمتها الحضارية ومكانتها الثقافية ودورها في بناء المستقبل[٣٥].

وبذلك يتضح أن مستقبل اللغة العربية لا يرتبط بقدرتها الذاتية فحسب، وإنما يرتبط أيضاً بمدى قدرة المؤسسات التعليمية والثقافية والإعلامية على توظيف الوسائل الحديثة لخدمتها، وتحويل التحديات الرقمية إلى فرص حقيقية تسهم في تعزيز حضورها واستمرارها.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بعد هذه الدراسة التي تناولت موضوع: (العلمانية والهوية اللغوية العربية: دراسة نقدية في أثر الفكر العلماني على مكانة اللغة العربية الفصحى)، تبيّن أن اللغة العربية ليست مجرد وسيلة للتخاطب والتواصل بين أبناء الأمة، وإنما تمثل ركيزة أساسية من ركائز الهوية الحضارية والثقافية التي تشكلت عبر قرون طويلة من التاريخ الإسلامي والعربي. كما أظهرت الدراسة أن العلاقة بين اللغة والهوية علاقة وثيقة لا يمكن الفصل بين طرفيها، إذ إن اللغة تحفظ الذاكرة الجماعية للأمة، وتنقل قيمها ومعتقداتها وتراثها الفكري من جيل إلى آخر.

وقد كشفت الدراسة أن الفكر العلماني، في سياق ارتباطه بمشروعات التغريب الثقافي، لم يقتصر تأثيره على الجوانب السياسية والاجتماعية فحسب، بل امتد إلى المجال اللغوي والثقافي، حيث ظهرت دعوات متعددة هدفت إلى التقليل من مكانة اللغة العربية الفصحى، والدعوة إلى إحلال اللهجات العامية أو اللغات الأجنبية محلها في بعض مجالات التعليم والثقافة والإعلام. كما بينت الدراسة أن هذه التحولات لم تكن ذات طبيعة لغوية مجردة، بل ارتبطت بإعادة تشكيل المرجعيات الثقافية وأنماط التفكير داخل المجتمعات العربية.

وفي المقابل، أثبتت الدراسة أن اللغة العربية ما تزال تمتلك من المقومات الحضارية والخصائص اللغوية ما يؤهلها للحفاظ على مكانتها ومواكبة التطورات المعاصرة، وأن التحديات التي تواجهها ترتبط في جانب كبير منها بالسياسات التعليمية والثقافية

والإعلامية أكثر من ارتباطها بقدرات اللغة الذاتية. كما أن العصر الرقمي، على الرغم مما يحمله من تحديات، يتيح فرصاً واسعة لتعزيز حضور اللغة العربية وتوسيع مجالات استخدامها إذا ما أُحسن استثمار الوسائل التقنية الحديثة في خدمتها.

النتائج:

١. تبين أن اللغة العربية الفصحى تمثل أحد أهم مقومات الهوية الحضارية للأمة العربية والإسلامية، وأن المحافظة عليها تعد جزءاً من المحافظة على الهوية الثقافية والانتماء الحضاري.

٢. كشفت الدراسة عن وجود ارتباط وثيق بين بعض الطروحات العلمانية ومشروعات التغريب الثقافي التي سعت إلى إعادة تشكيل البنية الثقافية للمجتمعات العربية، بما في ذلك علاقتها باللغة العربية ومكانتها في الحياة العامة.

٣. أظهرت الدراسة أن الدعوة إلى العامية تمثل أحد أبرز التحديات التي واجهت اللغة العربية الفصحى؛ لما يترتب عليها من إضعاف للوحدة اللغوية والثقافية بين أبناء الأمة العربية.

٤. أسهم التوسع في استخدام اللغات الأجنبية في بعض المؤسسات التعليمية والإعلامية في تراجع حضور اللغة العربية في بعض المجالات المعرفية والثقافية، الأمر الذي انعكس على مستوى الوعي اللغوي لدى فئات من المجتمع.

٥. أثبتت الدراسة أن اللغة العربية تمتلك من الخصائص والمرونة ما يجعلها قادرة على استيعاب المصطلحات العلمية والتقنية الحديثة، وأن الادعاء بعجزها عن مواكبة العصر يفتقر إلى الأساس العلمي الموضوعي.

٦. بينت الدراسة أن المؤسسات التعليمية والثقافية والإعلامية تؤدي دوراً محورياً في المحافظة على اللغة العربية وتعزيز حضورها في المجتمع.

٧. أوضحت الدراسة أن التحولات الرقمية المعاصرة تمثل تحدياً وفرصة في الوقت نفسه، وأن مستقبل العربية في الفضاء الرقمي يرتبط بمدى الاهتمام بإنتاج المحتوى العربي وتطوير التقنيات اللغوية الحديثة.

التوصيات:

١. تعزيز مكانة اللغة العربية الفصحى في المؤسسات التعليمية وجعلها محوراً أساساً في العملية التعليمية والبحث العلمي.

٢. دعم مشاريع التعريب والترجمة العلمية بما يسهم في توسيع دائرة المعرفة المنتجة باللغة العربية.

٣. تشجيع المؤسسات الإعلامية والثقافية على الالتزام باللغة العربية الفصحى في برامجها ومنتجاتها الثقافية والإعلامية، وتطوير المحتوى الرقمي العربي، ودعم المبادرات التقنية التي تسهم في خدمة اللغة العربية ومعالجة نصوصها إلكترونياً.

٤. العناية بالدراسات العلمية المتخصصة في قضايا الهوية اللغوية والسياسات اللغوية والتحديات الثقافية المعاصرة التي تواجه اللغة العربية.

٥. نشر الوعي بأهمية اللغة العربية بوصفها عنصراً أساسياً من عناصر الهوية الحضارية، والعمل على ربط الأجيال الجديدة بلغتها وتراثها الثقافي.

٦. تفعيل التعاون بين المؤسسات الأكاديمية والثقافية والإعلامية من أجل وضع استراتيجيات عملية تسهم في حماية اللغة العربية وتعزيز حضورها في مختلف مجالات الحياة المعاصرة.

وبذلك يتضح أن المحافظة على اللغة العربية الفصحى ليست قضية لغوية فحسب، بل هي قضية حضارية وثقافية تتصل بمستقبل الأمة وهويتها وفاعليتها في عالم يشهد تحولات متسارعة، الأمر الذي يستدعي مزيداً من الجهود العلمية والثقافية والمؤسسية لضمان استمرار العربية لغةً للعلم والمعرفة والحضارة.

الهوامش

(١) ينظر: قاموس أكسفورد الإنجليزي، جون سيمبسون وآخرون، مطبعة جامعة أكسفورد، ط٣، ٢٠٠٨م.، ص٧٨٥. وينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م، ٦٢٤/٢.

(٢) ينظر: العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر الحوالي، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٩٩٧م، ص١٦٥-١٧٤. وينظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، عبدالرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، ط٢، دمشق، ١٤١٢هـ-١٩٩١م، ص٢٤.

(٣) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، ط١، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص١٦.

(٤) ينظر: علمانية المدفع والإنجيل، محمد عمارة، مكتبة الإمام البخاري، الإسماعيلية، ط١، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م، ص٥٤.

(٥) ينظر: الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني، أنور الجندي، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٣٦. وينظر: حصوننا مهددة من داخلها، محمد محمد حسين، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٨١م، ص١٤٤.

(٦) ينظر: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، عبدالرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٩٧٨م، ص٣٥٧–٣٥٨. وينظر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، عمر فروخ ومصطفى خالد، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م، ص٢٢٤.

(٧) ينظر: فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٩، ٢٠٠٤م، ص١٣–١٥.

(٨) ينظر: اللغة العربية عبر القرون، محمود فهمي حجازي، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٢١–٢٤.

(٩) ينظر: فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٦، ١٩٩٩م، ص٣٤–٣٨.

(١٠) ينظر: اللغة العربية عبر القرون، محمود فهمي حجازي، ص٤٥–٤٩. وينظر: العربية وعلم اللغة الحديث، محمد محمد داود، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٦٧.

(١١) ينظر: العربية لغة العلم والثقافة، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢م، ص١٨–٢٥.

(١٢) ينظر: اللسانيات وأسسها المعرفية، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٦م، ص١١٢–١١٥. وينظر: العربية وعلم اللغة الحديث، محمد محمد داود، ص٨٤–٨٦.

(١٣) ينظر: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ص٣٥٧.

(١٤) ينظر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، عمر فروخ ومصطفى خالد، ص٢٢٤.

(١٥) ينظر: اللغة العربية عبر القرون، محمود فهمي حجازي، ص١٣٢.

(١٦) ينظر: فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، ص٧١.

(١٧) ينظر: العربية وعلم اللغة الحديث، محمد محمد داود، ص٩٥.

(١٨) ينظر: اللسانيات وأسسها المعرفية، عبدالسلام المسدي، ص١٢١.

(١٩) ينظر: فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص٢٢٤.

(٢٠) ينظر: اللغة العربية عبر القرون، محمود فهمي حجازي، ص١٨٧.

(٢١) ينظر: العربية وعلم اللغة الحديث، محمد محمد داود، ص١٤٣.

(٢٢) ينظر: العربية لغة العلم والثقافة، شوقي ضيف، ص٥٣–٦٠.

(٢٣) سورة يوسف، الآية ٢.

(٢٤) ينظر: فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص١٤.

(٢٥) ينظر: العربية لغة العلم والثقافة، شوقي ضيف، ص١٨–٢٢.

(٢٦) ينظر: اللغة العربية عبر القرون، محمود فهمي حجازي، ص٤٥–٤٩.

(٢٧) ينظر: العربية وعلم اللغة الحديث، محمد محمد داود، ص٦٧–٧٠.

(٢٨) ينظر: فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص٢١٥.

(٢٩) ينظر: مدخل إلى التعليم في ضوء الإسلام، طلعت محمد عفيفي، دار الدعوة، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٦م، ص٥–٦.

(٣٠) ينظر: العربية وعلم اللغة الحديث، محمد محمد داود، ص٩٥–٩٨.

(٣١) ينظر: اللسانيات وأسسها المعرفية، عبد السلام المسدي، ص١٢١–١٢٤.

(٣٢) ينظر: اللغة العربية عبر القرون، محمود فهمي حجازي، ص١٨٧–١٩٠.

(٣٣) ينظر: العربية وعلم اللغة الحديث، محمد محمد داود، ص١٤٣–١٤٧.

(٣٤) ينظر: اللسانيات وأسسها المعرفية، عبد السلام المسدي، ص١٢٨–١٣١.

(٣٥) ينظر: العربية لغة العلم والثقافة، شوقي ضيف، ص٥٣–٦٠.

قائمة المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق – بيروت، ط٤، ١٩٧٨م.

٣. الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني، أنور الجندي، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦٤م.

٤. التبشير والاستعمار في البلاد العربية، عمر فروخ، ومصطفى خالد، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

٥. حصوننا مهددة من داخلها، محمد محمد حسين، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٨١م.

٦. العربية لغة العلم والثقافة، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢م.

٧. العربية وعلم اللغة الحديث، محمد محمد داود، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.

٨. العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.

٩. علمانية المدفع والإنجيل، محمد عمارة، مكتبة الإمام البخاري، الإسماعيلية، ط١، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

١٠. العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٩٩٧م.

١١. فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٦، ١٩٩٩م.

١٢. فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٩، ٢٠٠٤م.

١٣. قاموس أكسفورد الإنجليزي، جون سيمبسون وآخرون، مطبعة جامعة أكسفورد، ط٣، ٢٠٠٨م.

١٤. كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩١م.

١٥. اللسانيات وأسسها المعرفية، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٦م.

١٦. اللغة العربية عبر القرون، محمود فهمي حجازي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٧م.

١٧. مدخل إلى التعليم في ضوء الإسلام، طلعت محمد عفيفي، دار الدعوة، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٦م.

١٨. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.

١٩. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، الرياض، ط٤، ١٤٢٠هـ.

Sources and References List:

1. The Holy Quran.
2. The Three Deceptive Wings and Their Hidden Aspects, Abdul Rahman Hassan Habnka Al-Maidani, Dar Al-Qalam, Damascus – Beirut, 4th edition, 1978.
3. Islam in a New Assault on Human Thought, Anwar Al-Gendy, Al-Risalah Press, Cairo, 1964.
3. Missionary Work and Colonialism in the Arab Countries, Omar Faroukh and Mustafa Khaled, Dar Al-Fikr Al-Lubnani, Beirut, 2nd edition, 1985.
5. Our Fortresses Are Threatened from Within, Mohamed Mohamed Hussein, Dar Al-Irshad, Beirut, 1981.
6. Arabic: The Language of Science and Culture, Shawqi Daif, Dar Al-Ma'arif, Cairo, 1992.
7. Arabic and Modern Linguistics, Mohamed Mohamed Dawood, Dar Gharib for Printing, Publishing, and Distribution, Cairo, 2001.
8. Partial Secularism and Comprehensive Secularism, Abdul Wahab Al-Masiri, Dar Al-Shorouk, Cairo, 1st edition, 2002.
9. Secularism of the Cannon and the Gospel, Mohamed Amara, Imam Al-Bukhari Library, Ismailia, 1st edition, 1428 AH - 2007.

10. Secularism: Its Origin, Development, and Effects on Contemporary Islamic Life, Safar bin Abdul Rahman Al-Hawali, Dar Taiba, Riyadh, 1st edition, 1997.

11. Chapters in Arabic Jurisprudence, Ramadan Abdel Tawab, Al-Khanji Library, Cairo, 6th edition, 1999.
12. Language Jurisprudence, Ali Abdel Wahid Wafi, Nahdet Misr Publishing, Cairo, 9th edition, 2004.
13. Oxford English Dictionary, John Simpson et al., Oxford University Press, 3rd edition, 2008.
14. Zeoph Explorers in Contemporary Thought Doctrines, Abdul Rahman Hassan Habnaka Al-Maydani, Al-Qalam House, Damascus, 2nd edition, 1991.
15. Linguistics and Its Cognitive Foundations, Abdul Salam Al-Masdi, Arab Book House, Tunisia, 1986.
16. The Arabic Language Through the Ages, Mahmoud Fahmy Hegazy, Gharib Publishing and Distribution, Cairo, 2007.
17. Introduction to Education in Light of Islam, Talaat Mohamed Afifi, Al-Daawa House, Alexandria, 1st edition, 1996.
18. Al-Waseet Dictionary, Arabic Language Academy in Cairo, Al-Shorouk International Library, Cairo, 4th edition, 2004.
19. The Simplified Encyclopedia of Contemporary Religions, Doctrines, and Parties, World Assembly of Muslim Youth, Al-Nadwa Al-Alamiyya Publishing, Riyadh, 4th edition, 1420 AH.